دلائل

توفيق

صعبة

صايغ

مكتبة
لسان العرب
أ علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

ثلاثون قصيدة • توفيق صايغ

دار الشرق الجديد

Halts by me that Footfall :
Is my gloom, after all,
Shade of His hand, outstretched carressingly ?
« Ah, fondest, blindest, weakest,
I am He whom thou seekest !
Thou dravest love from thee, who dravest Me. »

— FRANCIS THOMPSON,
« The Hound of Heaven »

في الأوراق التالية سيأخذ عليّ ناقديّ الكثير .
لكنّ المأخذ الأبرز سيظلّ عنهم خلف حجاب :
أني تصاعدتُ من بحيرتكِ غيمةً ، هطلتْ على
الأودية ، وفوقكِ انشحتْ بالبياض ، وأني ،
بين « بلىّ » كنتِها منذ بطش الضوء بالعتمة
الحنون ، و « بلىّ » ستكونينها حين
تعيدنا معاً عتمة أحنّ ، طوالَ عهد
الضياء الضرير ، كنتُ « لا » .

بقلم سعيد عقل

تتشوّف الحياة ابداً الى الحلم .

ولكالنتاج الفنيّ هي . تُعاشُ نثريّةً فكأنها لم تكن . ووحدَه يمرّ في الأرض مَرّاً مليئاً مَن كانت حياته قصيدة .

والذي بين يديك اليوم حلمٌ ، محضُ حلم ، لشدّة ما هو حياة .

●

رأى نفسه طريّ عود ، يافعاً ، « تدعوه ذراع » . ما مِن جسدٍ هذه الذراع . انها من حسن خالص . وهي الضائعة في حضورها الكثيف . صاحبتُها تسكن الوفر : فيا للحبّ بطعم الحجر .

ولكنه لا يلبث ان يلتقي الحبيبة التي من لحم ودم . فيعرف النارَ في الاعراق . نار لا تطاق لكثرة ما تُرهق . فيتذكر انه ،

قبلَها ، كان شفّافَ الوجود . « مـــا كان احلاني » ، يقول ، « بعيداً عن الكون » . ويخاف على الحبيبة الزوال . أمّا هي ، لبراءتها ، « بعمر القصيدة » ؟

ثمّ يخيّل اليه انـه بوسائل غير ذات حقّ بلغ مبلغَهُ الحارّ . انه لبالشقاء يُسعَد . ان زلزلة تهدر في كيانه . أكثرُ من انخساف أرض فيها ، وأكثر من دمار وجود . فيهـــا الذي لا قِبَلَ للحواسّ بتحمّله . « أأفقأ عينيّ » ، يهتف ، « كي لا أشهد قبحاً ؟ » سوى ان الحياة رحيمة . أمّا فيها الفتوّة الضاحكة ، والربيع ، ومبزغان الصبح ؟ ها هو والحبيبة طفلان . « يطفران فوق الجبال » مسربلين بالقوة ، « لا يخشيان أسداً وسط ادغال » . أوَ يعبّان من الينبوع ؟ لا ، لا . وقد « كان في حبهما نقص » . ولكن لأن في حبهما نقصاً ، ولأنهما بلا أرجل يسعيان ، يرتميـــان في الحوض . يرتميان ويرتويان ، وقد « انزاح الستار الأخير » .

وكأنّما لكلّ ثمرة محرّمة قصاص ، هنا ، كذلك ، هنا على الأرض : فالحبيبة تخون . تخون حبيبها مع صديقه . فيا للرماد يُطعَمُهُ حارّاً . ويحسّ انه - وهو في مكانه - يرحل .

تراه في جحيم ؟ لا ، وهـــا هو ينقلب بشراً فوق البشر . يعرف الألم حتى النهاية . أشبهُ بذاك الاله هو : مثله له بستـان

زيتون . فيهتف بما به لم يهتف احـــد . يتجرّأ على الله . « أأنا أصفّد ؟ » ، يصرخ في وجهه ، أصفّد لولادتي في عالم أنتَ عيّنتَه لي ؟ حيّرتني ، حيّرتني إلهي !

ويكاد بالحجارة يرشق مطلّت السماء ، لو لم تشفع به كلمة تقيم من موت : ربّ ، انت المحبّ .

وانه لقابض على خشبة ، على شفا الوجود والزوال ، يـــدير عينيه الى ذاته . فيرى نفسه « عاقراً بين اطفال اختها » ، تكاد تخمّش وجودَها تخميشاً . ولكنها - لما يغمر كيانها من حنان على من ليسوا لها - تحسّ ذاتها أغنى من أمّ . وفي غدها ، لانها باتت « تعرف من اسرار الخلق ما لا تعرف الامهات » ، سيطوّقها الفجر أجمى من عروس .

انه الآن لمدمّر في ذاته كلّ شيء . كلّ شيء الا **المُعْطِي** . هو صاحبُ القصيدة إذن . يُبدِع ليُبدِع . « ما قادني اليك هوى » ، يقول ، « بل قادني اليكِ هوايَ لي » . وأنا هنا « لا لتأخذي ولكن لأهب » .

هـــا هو في صحبة شَعَّةٍ جاءت من عبر الأوقيانوسات . صديق يدعوه الى مأدبة لأفلاطون . « أطايب الملك » عليهـــا وفاخر المشرب . ولكنه وسط الخوان الشهيّ لا يجد ما يمدّ اليه

يداً . وتظلّ لا تُطِلّ تلك المنتظَرة منذ الدهور .

ويُضيع نفسه . ولكن لأنه يعرف كيف يُضيعها ، يجدها عنيفةَ الوجود . يهتف . يرفع صوته بالفرح . يزلزل الآونة التي يسكن ، يتملاّها من مسرّة . ولكن لأن الحياة صعبة كأحجيّة ، يبقى عليه ان يعرف تجربة دانيال .

هو الآن في قلب الحياة الضاجّة ، البارّة باهلها ، اللاسعة بالربح والدوح المقتلَع والمحق ، منذ قوله للبحر : « ازبد وطرطش » ، الى تحمّل « البارمان الاعور » يركله برجله ، الى التطهّر بالنار ، والتفتيش عن « رأس أصلع » يخطّ عليه قلبه .

ويُعطَى ، بعد العاصفة ، لذّةَ الاستمتاع بالطبيعة . طمأنينةً تجعله يحب البحر ، ملعب حنان وبناء ، والرمل « زوجة شمس » . وفي ظلّ قلامة من سعادة كادت تُذهله عن الحياة ، تلتمع له ـ سريعة الخطى ، فاغرة الشدق ـ أوجعُ خطايا العارف . تلتمع له خطيئة الضجر . « ثمّ مـــاذا ؟ » يصرخ . ويكرّرها تقصم من ظهر : « ثمّ ماذا ؟ » « ثم ماذا ؟ »

انـــه الآن فاوست آخر . يستعين بالسحر . يتطلب كسر القمقم الذي فيه سُجِن .

وانه اشتَبَح . الدنيا حوله صفر من اشياء الحسن ، خلوٌ من

« ارتعاش قدّ » . فيهرب من الوجود . ولكن الى اين ؟ الى الوجود الأنْبَل .

ويقوده مفيستو ، في ذلك التطواف المرهق ، الى الحواضر ، « حيث الملايين أركان اقفاص » . الا انه حتى متى راحت تبدو له بارقة أمل ، يظلّ يلوّح له بصكّ الدم . ويبقى لزاماً عليه ـ لكبرياءَ لم تفارقه ـ ان يستبق (الروح النافي) الى تطلّب العتمة المريحة الاخيرة .

ويكون له «طريق دمشق». هاتفٌ يقول له : « بدّلتُ لكَ الطين » آخر ، « تمتّعْ بالجمال ». ويصبح الى « موعظة جبل » . وانها لمن الجدّة عليه تلك القديمة كالقدم بحيث بتخيّلها لم تُسمع قبل ، وان صاحبها اليه وحده يُسِرّ .

ويعاوده الشقاء . ماذا ؟ تراه بات عريق عهد بالشقاء ! قلبٌ لا يقرّ . بناءٌ ناريّ يُسنى من جمر . فاجرٌ يجدّد خطيئة (حامي النور) . ماذا ؟ أين بعد الرؤية ، الرؤية العظمى ، يجرؤ ان يتطلّب ؟ وما يتطلّب ؟ وكلّ ما يُعطاه ـ بعد الذي أُعطيه ـ فراغ ! ومع هذا يريد . يريد ولو الشكل . عِدْهُ ، يا عرقوب ، عِدْهُ لا ليغنم بل ليكون في الوجود وعد جديد .

وتحين منه التفاتة الى بلاده . تلك التي « رأست المنتدى » .

فاذا هي قد انتهت ، حتى لتقوّد لبناتها ! وعلى مقربة من ضريح القيم ، يستشرف كلّ الحضارة . انها لزنجي يسوقه بسوط. ذراعان ممدودتان من عجز . أصابعُ لبعضٍ من بشر . فمٌ « يمزج الغناء بالصلاة » .

ومرّةً اخرى يجد نفسه يجالد . (تراه كفّ يوما عن الجلاد؟)

ويعرف الفرح . فضيلةٌ بنتُ المحبة. بنت (التي هي العظمى). ما أجملها أغنية تنطلق من فيه كأنها ملء الوجود . وترٌ فريد البثّ بين أوتار الحفنة الغنيّة .. « قدميّ نطنطا » .. « وان شئتما فحطّا على اراس » .. « قدميّ أقلعا » .. « وأنا سأنطنط » .

واذا يعاوده صخبُ الحياة ، وجهلِ الناس له ، يحكمون عليه بالابعاد ، فيسبقهم – وقد أصبح في الخارج – يسبقهم الى الحكم عليهم .

وانه ، آخرَ المطاف ، لفي حضرة المرأة. (أهي الحياة الحرّة؟) انه ليستغفرها على خيانته لها . فلا يجد اجمل من تذكيرها بانه قد سبق له ان نُحِتَ نحتا معجزا ، هذا الذي راح طولَ حياته يحطّم العدم الذي فيه .

●

حلمُ توفيق صايغ ! انتهى حلم توفيق صايغ .
أعرفُ ايها القارىء انك تودّ لو لا ينتهي .

ولكن الى ايّ قول تريده بعد ؟! الحياة كلّها أفرغها هـذا الفتى الذي عاش نيسانانه و كأنها دهور. أكاد أحسّ التاريخ جميعا، منذ بابل ، يتفلّت عنده من سجن الكلمة .

ان كتابه لا لِيُقرَأ . انه لِيغدو خلجاتٍ فيك، ودماً دافقا، ونارا . انه مزيج من شبق ولاهوت ، من كشفٍ علميّ وخطيئة وبرارةٍ ملائكية أولى .

ولكننا لم نأخذ على هذا الخاطىء الكبير ، ولا مرّة ، أنـه كفّ . انه توقّف .

لكم هو ابن للحياة هذا الذي لم يتعب من قرع باب الحيـاة . قد تدهـه ، قد تطحنه . فيبقى منـــه ولو رماد . رماد يعاود الكرّة : يقرع باب الحياة من جديد .

انه كلّ شيء سوى اللاشيء ، هذا الذي جاء آخرَ الزمن ، في عصر يتنفّس العدم تنفّسا : في الفلسفـة والشعر وفي الفنّ جميعا . أيّ ثورة على الشيطان ، على (لروح النافي) ، هذا الذي يظلّ يفكّك ذرّاتِ النفي حـتى يهتدي الى سرّ تحويلها . **تحويلها الى معدن الوجود .**

انه حتى في بغضه – وهل يمكن مثلَهُ أن يُبغِض ؟ – انما هو حبّ يُخصِب الشتاء وهولَ العاصفة. يخصبها بألف زهرة – أمنية.

لا . لم يسلسل حياته . لقد اقتحمها اقتحاما . ومن هنا انه آثرَها عنيفةً لا جميلة . أوّلَ مرة يقصد فنان مشرقي – عامداً – محجّةً غير مؤتلقة النور . ولكنه ، لوفرة ما يملؤها ويُعمِل فيها قوّته الصنّاع اليدين ، يرفعها الى مستوى الجمال .

هنا اللفظةُ لا لِتقول ، حتى ولا لِتكوكب . انها لِتُعدِيك بالوجود . وهكذا تلاعُبُهُ الفنّي جميعا . من تطلّب المفاجأة ، وانفجار كلمتين مستقطبتين – وزلالِيّةِ ضوء احيانا – واقحام لغةِ حياة في لسان قداسى ، الى درس أصول من ضمن أصول ، حتى لأنتَ أمام كلّ شيء خلا الجبن .

أجرأ الاقلام المشرقيّة هذا الفتى المضطرب ، المحرور العينين . انه يقوم بعمل عجب : مِن عَجْم الفكر ، ومن إلباسه ثوباً فريدا قد يكون لا يزال في خاطر الجرأة من باريس ، ولكنه في عراقة ذوقها الأخّاذ . انه يكاد يُعيد النظرة في ماهيّة المطر ، وكيف يُقصَدُ لا يُنتَظر موعدُه ، ويُعيد النظر كذلك في أصول قص الشفق وكَدْسِهِ وردةً تشتعل في الخاطر .

زحلة ، اول ايلول ١٩٥٤ سعيد عقل

ثلاثون قصيدة • توفيق صايغ

١

أناتَكَ ، لا تُبَلِّلْ جراحي
وابْعِدِ الحلَّ عنّي :
سياطُ جلاّديكَ كَفَتْني ؛
مُحبّي مُعذّبي ، ألا تكفيك ؟

في مُسراي ، صيداً للذاتِ الانتظار ،
عثّرتْ خُطاي
مِشْيَتي بقدمينِ وقدميّ .
وبينَ صدِّ قدميْ مبعوثكَ لي

وركلِ قدميّ له
خبا وهجُ اللذاذات .
وفي لحظاتِ الخلوة
أطلَّ علينا رقيبٌ ليس فيه شذوذ ؛
في لحظاتِ الذرى رأيتُ الهاوية ،
ومع نشيقِ العطور تنشّقتُ الحنوط .
وفي الرجوعِ أحضرتُ
هارباً من ذاتٍ تُلاحقُني ،
سوطٌ في قَفا هذي
وسوطٌ أمَرُّ في قَفا ذاك .
عَكَّرْتَ أحلامي
وأفسدتَ عليَّ لذّتي
وأعضْتَني قلقاً وندامة
وحاسّةَ الاثم .

أفلا يكفيكَ هذا ،

الهي ، ألا يكفيك ؟

معاقبَ العاصي ،

جعلتَ معصيتي عقابا :

أفأنالُ عقابين ، أيها العادلُ ،

لدونِ ما معصية ؟

قاضيَّ ، لا تُصِخْ سمعكَ منّي ،

واعذِرِ احتبائيَ الروبَ

وزحزحةَ القيدِ عن معصمي :

فانْ كنتُ المذنبَ والمحامي

أَفلسْتَ قاضيَّ والغـريم ؟
(واغفرْ الهي مـا أقـول) .

أنتَ الذي حكمتَ عليّ بالنفيِ
وعيّنتَ في المنفى منازلي ؛
وَصمتَ جبيني
وفرّرْتَني في اللامكان
أفتّشُ عن كفّارةٍ
تحملُ لي صكّ الفداء
واحملُ لها التغنّي
بصوتٍ لمْ يُدَنْدِنْ منذُ أيامِ الوطن.
أعطيتَني مفتاحاً
أدرتُهُ في القفل

فرحّبتْ من الداخل كفّارةٌ عقبَ كفارة
حتّى اذا ما أطلّتْ عليّ
وتوسّمْتُ الخلاص ،
رأتْ جبينيَ الذي وصمتَ
والتبطَ البابُ في وجهي
وتدحرجَ المفتاح على العتبة .
أأنا الملومُ

اذا استدار القفلُ ولم يتدحرجِ المفتاح
الاّ في منزلٍ على جبينِ ربّتِهِ
وصمةٌ كوصمتي ؟
أأنا الملومُ
انْ أنتَ نفيتَني
وأنتَ وصمتَني
وقلتَ : «فتّشْ عن الفداء» ،

ومنعتَ عنّي الفداء ؟

أأنا أصفّد

لدخولي منزلاً

أنتَ عيّنتَهُ لي

ومفتاحُكَ أدخلني فيه ؟

أناتَكَ يا واصمي :

رضيتُ الوصمةَ

وكفّارةً وسّعتْ وصمتي ،

أفلا يكفيكَ هذا ،

إلهي ، ألا يكفيك ؟

لنْ أقولَ بعدُ . لنْ اقول .

دعاويَّ أحكمتُها بمنطقٍ

شحذْتُ حدَّها كباتر :
لم يُجَرِّحْ غيرَ أصابعي .
اقتنعتُ بصحّتِها
ولكنّها لم تقلّلْ من ندامتي .
أعرفُ أنّي غيرُ ملومٍ
وأعرفُ أنّي أقرُّ ، إذْ أدفعُ ردعَكَ ،
أنّي ملوم .
نصبتُ ذاتي المذنبَ والمحامي
وأراكَ خلعتَ عليّ رداءَكَ ، قاضيً ،
وقلبتَني الخصمَ الذي ظننتُهُ فيك .
أنتَ وصمتَني ،
لكنّك وصمتَني أنا ؛
وتعييبُكَ منفايَ لي
لرضاك عليّ .

وفي حجبِكَ الكفّارةَ عنّي
وقولِك : «اسْعَ الى كفّارتك»
حيّرتَني الهي .
حيرتي تشفع لي .

أيّها العادلُ ، أنتَ الراحمُ .
مُبعدي واصمي معذّبي ،
أنتَ المُحَيّري ،
أنتَ المحبّ .

قدماي نَطْنَطا :

للباز يومُه

وللدودةِ لا يخدشُ الصخرُ طراوتَها؛

يومُكما أمرٌ

ساعاتُهُ دِنان

(لو تعي الشفاه) .

قِدْماً تسابقْتُما

الى حيثُ انقلبتُما أذنين

أطربَهما لقاءُ الأكفّ ؛
وكدتُما تتعثّران
اذْ توحّدتُما وضيعاً تجبّر
فسَطا رعشةً وارتمى ؛
وتشحشطْتُما
الى تلّةِ الماكين والمنسحقي القلوب
ورفسْتُما الطوبى .
قدمايَ ، نَطْنِطا :
جرجرةٌ بعدُ ، أو قمزة ،
ويطلقُ عبديهِ السيّدُ .

تَبَخْتَرا :
أنتُما الفُلْكُ الخليُّ

والرّبّانُ والبوصلة .

هَمِّيَ أنْ تُقْلِعا ،

وإنْ شئتُما فَحُنّا على حوت ،

وانْ شئتُما فشَوِّها الصقلبَ

وابصُقا في وجه أبيه ،

وان شئتُما فحُطّا على أراراس .

قدماي ، أقْلِعا

وانا سأنَطْنِط .

الموعظة على الجبل

أنا أيضاً اتّبعتُه ،

غذّيتُ قوّتَهُ بضعفي ،

وأعنتُه على تحقيقِ ذاتِه .

على التلّةِ اللثغاء

التي انتظرها طويلاً ذراعانِ متراخيان

لبحيرتِنا النعسة

(كدمعةٍ يتشوّق اليها الخدُّ

وتتقربطُ بِعَيْن) ،

اكلتُ مع الآكلين ،
ورأيتهمْ يُهلّلون لهُ ، وقد شبعوا ،
ويتدحرجون في اثرهِ .
وحدي لبثتُ على التلّة ،
وراقبتُهُ يستمعُ للمياه تعلنُ الولاءَ بصمت
ومختاروه مِن حولِه يُقَوقئون .
وحدي لبثت ، أنتظرُ عودتَه .

عرفتُ أنَّهُ سيعود :
فالأرغفةُ الباردة وقطعُ السمك
(ولو انَّ يديْ أمٍّ لفّتاها
ولو انَّها ببركةِ أمٍّ تملّحتْ)
تركتْني أتضوّرُ جوعاً .

والمياه التي انقلبتْ خموراً
عادتْ مياهاً على شفتيّ .
والوحلُ الذي نقّى من الوحل عينيْ برتماوس
جعلَ عينيّ تسألانِ ما كانتا تتنزّهان به .
والنداءُ الذي أعادَ فتى نايين للحياة
تركَ أمّي في سَواد .
على تلّةِ الخصب
وسطَ السنابلِ تتعالى كشموعٍ
وتتلوّنُ خدودُها إذْ يغمزُها
بعيونٍ متعبةٍ
سمكٌ لا ينام ،
تضوّرتُ جوعاً .
أنا جُرِّبْتُ أيضاً :
في غيرِ بَرِّيَّةٍ جُرِّبْت .

وعاد .

مِن المياهِ تنبعُ آلهةُ الحبّ .

عادَ ، وفتحَ فاه

(وقالَ قومٌ انّهُ تغنّى

وقالَ قومٌ انّها صلاة) ؛

هل سمعَهُ سواي ؟ ظننتُ

أنّهُ كانَ يُسِرُّ لي .

لمْ ينادِني ، وخرجتُ ؛

ولمْ يكسّرْ أرغفةً ولمْ يلمسْ دنانا ،

وامتلأتِ السلالُ مِن جديد

ورأيتُ المعازيمَ الذين اضاعوا الوعيَ بوعيٍ يتلمّظون؛

ولمْ يبصقْ على الارضِ المتجدّدة ،

واذا سبعةُ المجدلِ سبعون ؛
اذْ فتحَ فاه .

على التلّـةِ أضْـطَـجِـع .
وحينَ تُعَـرِّجُ عليها الشمسُ
فتزيد حرارتَها
ولا تزيدُ الضياء ،
أُهبُّ لملاقاةِ الموجةِ
التي تجيئُـني بغيرِ مجذاف .
في موطني ، الى موطني أحجّ .

وأعرفُ أنّـهُ سيعود .

وأنتظرُ عودتَه

(مقبرتُنا الآنَ على التلّة) .

اليها سيعود ، مخلّفاً الجموع ،

ليبحثَ عنْ مسندِ رأس .

وقدْ يفتحُ فاه

وقد أسمعُ « طوبى — » .

٤

ثُمَّ ماذا ؟

يقلبُ الملهاةَ مأساةً

يمحو عن المأساةِ الجلال

مرددٌ خفيت

يُبَبْغِي :

ثُمَّ ماذا ؟

دُنايَ الفراغ ،

أوكارٌ حبالى

ثمّ ماذا ؟

إنْ يعتكفْ يوماً

وتمتلي وجناتُ الدُّنى

يسلُّ اللونَ منها

فزعٌ يومضُ

و رعدٌ يقحّ :

ثمّ ماذا ؟

مَصيفي الفراغُ ،

مَشْتايَ الفزع ؛

وعَيْشي قطارٌ بينَهُما

صفيرُهُ

ثمّ ماذا ؟

مع قهوةِ الصباح

ثمّ ماذا ؟

وطوالَ ساعاتِ العمل

ثمّ ماذا ؟

وقبالةَ الأوراقِ

وبينَ طيّاتِ الفراش

ثمّ ماذا ؟

وكما هُنا هُناكَ

ثمّ ماذا ؟

يَقْضُ اليومَ

ثمّ ماذا ؟

ولا يُبْقِي منهُ رسماً لِغَدِ ،

ويَحْنُو على أطلالِ أمسٍ
كانتْ ديارًا وبُستانا
لولا
ثمّ ماذا ؟

وفي
ثمّ ماذا ؟
مَعْمَسْتُ أيّامي .

٥

سنواتٍ بعُمرٍ فتيّة
كان عليّ أن أجوبَ الديار الموحشة
وأسكبَ في النهر دموعي .
سنواتٍ أثمرَ الأترابُ فيها
أسامي وعوائل ،
وظلّتْ بذوري تُعارِكُ العتمة .
وتردّدْنَ على نوادي المجتمع ،
وهزّ لي الأطبّاءُ رؤوسَهم
ومدّوا الأيادي بعدَ طول علاج .

نزفْتُ حياتي ، وماءَ الحياة ،

وانتظرتُ

هاتفاً يَهَبُ البذرةَ دفئاً ونورا

ويُعتِقُ المنفيّ مِن تيهِه .

ولمْ أجُدْ بدمي في جهادٍ

ولمْ أتبرّعْ به لصليب

ولمْ أقدّمْهُ لوليّتِنا القمر

أقايِضُها به أملاً وثقةً وصحّةً تتجدّد.

نزفتُ حياتي ، وماءَ الحياة ،

وتابعتُ ترحالَ المساء .

وقال الهاتفُ : « طوبى
لمنفيٍّ يهتف المواطنون باسمِـه بطلا ،
ولصحراءَ تؤولُ الى أرض موعد ،
ولدموعٍ تنقلب ينبوعا ،
ولبزرةٍ مأوى الطيور ،
وصومعةٍ مأوى شريدي الديار ؛
طوبى لعينينِ مقعّـرتينِ تتجدّبان ،
ومُهَـمْـهِـمٍ يرتقي المئذنة ،
ولعليلةٍ تستنزفُ القوّة من اله . »

وصرختُ : « مَتى
لكنْ مَتى ؟ »
وقال : « يومَ يتلوّنُ الأفق

وتخضرُّ الرُبى ؛

يومَ تُميّزينَ المنارةَ مِن انوار القباب ؛

يومَ تلحقينَ بالجمهور

ولا تختفينَ فيه ،

ولا تؤخّرنَّكِ دفشاتٌ

أو يصدّنَّكِ تقريع المقرّبين ؛

يومَ تلمسين ،

وإنْ تساءل : مَن ؟ ، قلتِ : أنا . »

غداً لمنْ وجدتُني مارداً في قمقمِ
ترفسُه الأمواجُ تارةً
وتارةً تعالجُهُ الأسماكُ اليقظةُ فتعيا ،
هلْ أندبُ العالمَ الذي أضعت ؟
هلْ أشتمُ القدرَ الذي اختصرَ الماردَ وشوّهَه ؟
هلْ أكسّرُ القمقمَ وأنفلت ؟
أمْ أقبعُ فيه راضياً ، كما بِقَصْرِ ؟

هلْ أستغيثُ بسليمانَ مُسْتَسْمِحا ،

أو أنادي : « الهي ، ابعثِ الصيّاد » ؟

أوَلنْ يقولَ الهي : « ولماذا تريدُ الانفلات ؟ »

وبماذا أجيبُ الهي ؟

أأقولُ له : « أعلّمني السأم » ؟

وفي أرضِ الناس كان السأم

مُرضعتي، ورفيقَ دراستي، وعشيرَ الصبا،

وليلةَ زفافي سبقني الى الفراش .

أ أقولُ له « حننتُ الى الجماعة » ؟

الى جماعة طوّقتْني بذراعها فعضضتُه ،

ووهبتْني ما سألتُ فأنكرتُها ثلاثا ،

واحتضنتْني فلمْ أكنْ منها وكنتُ فيها.

أ أقولُ له : « أريد أن أنشرَ رسالتي »؟

على مَن أريد أنْ أنشرَ رسالتي ،

وَهمّي كانَ أنْ لا أفعلَ بلْ أفوه

وأن لا أفوهَ بلْ أتمْتِم ،

ولماذا لا أتَمْتِمُ في قمقمي ؟

وبماذا أجيبُ الهي ؟

غداً إنْ وجدُتني ماردا في قمقمِ

فلنْ أركلَ لحدي

ولن أميلَ عليه مغتبطاً بخدّي :

بَدّلتُ منزلي ولمْ أبدّلْ بلدتي .
وسأقبع فيه ، سئماً أبكمَ ،
ترفُسني الامواجُ فلا أهتزّ ،
وتدَغْدِغُني الأسماك فلا ألتفت .
وأظلُّ فيه ، محروماً حتّى من الذوَى ،
الى أنْ تغوصَ الشبكة
ويفرحَ الصيّاد ثمَّ يرتجف —

وهل أقول له: «انتقِ العرش الذي تحب»؟
أم أقول : « اخترِ الميتةَ التي تشاء » ؟

٧

سمّنْتَني فتهلّلتُ ،
وجزرْتَني فتلوّيتُ
أزَغْرِدُ الآهاتِ ، كذليلٍ
تحت سياط ذاتِ الفراء .

وتحسّسْتُ يديكَ
أبوسُهما ،
سلمتْ يداكَ يا مُعَرْقِبي :
تُقدِّمني لمُعْتَرٍّ ووافِدٍ ،

فتفوز بهمْ وعلى اليفاعِ غيرُ نار ،

وتشتري بي

(وكنتُ بَخْساً)

نفيسَ الثناء .

سلمتْ يداكَ يا معرقبي ،

لمحتُ اذْ بوّسْتُهما

أثرَ المسامير زال .

سيكلوجيا رجعية

لعمري ما رأيتُ يداً تقطف قرنفلةً
الاّ ورأيتُ دمعةً تحتَها انتصفتْ ،
واندلعتْ على ستارٍ
أمامَ عينيّ وخلفَهما
مشاهدُ السبيِ في الماضي الزريّ ،
واختطافِ العذارى ،
وصفوفِ الأطفال في ما يسمّونه بساتين.

أنا أعرف أنّ القرنفل للقطف

وأنَّ أيّامه في الروضِ
كأيّامِه أنّى يكون ؛
وأنَّ للقرنفلة البيضاء رسالةً
لا يسمعُها غيرُ بستانيٍّ أصمّ
الى أنْ تُحزَّ
وتلتقي الوردَ والزنبقَ
وأحمرَ القرنفلِ ومرشوشَهُ ؛

أنا أعرفُ أن مصيرَها آنذاكَ
لا تربةٌ ماويةٌ
بلْ إناءٌ سامقٌ رشيق ؛
وأنّها لنْ ترتمي تحت ورقٍ أخضرَ موحّل
بلْ على طاولة في مقصورة ؛

وأعرف أنّها قد تتنقّلُ من يد المحبّ ليد الحبيب،
وقد تنتصبُ لترى ذاتها ترتسم على لوحة،
وقدْ تُرشُّ والأسى فوق ضريح ؛

أعرفُ ؛
وأعرفُ أنّ الحضارة حضارة مُجتمعٍ لا قبيلة؛
وأنّ السيكلوجيا تبني النواطحَ على ذلك الاسّ ؛

لكنّما أعرفُ
أنّي كنتُ صغيراً
(وأدركُ أنّي صغير) ؛
أعرفُ أنّ آهاتيَ اليومَ ورغباتي

صدى آهاتِ أمسٍ وترجيعُ الرغبات ؛

وأذكر الرسالةَ والاناءَ

والحبَّ واللوحةَ والضريح ؛

لكنّما أذكرُ

الصباحَ زنجيّاً يسوقني بسوطٍ غليظ

وقُبيلَ المساءِ ذراعينِ وصدرا

وأصابعَها تعبثُ بشعري

وفمَها يقرنُ الغناءَ بالصلاة .

نشيد وطني

أحقّاً عرفتِ صِباً
وحقّاً أثارَ الفتنةَ
اصطخابُ ردفيكِ في الشباب ؟
أحقّاً ترأسْتِ المنتدى
وكرّستْ أعدادَها لفساتينِكِ
مجلاّتُ الموض ؟
لا أصدّق ؛
أحقّاً قلبْتِ زوجَكِ زعيماً وهدى
وبنى لكِ زوُجكِ معلّقاتٍ ،
يا بلادي ؟

أحقّاً غنّاكِ باجلالٍ
مَن كان بحرقةٍ غنّاكِ ،
وحقّاً حدوتِ الخيلَ
وساقَها بنوكِ لبعيدِ المراعي
وما فتحتْ فاها لقضمٍ
وفتحتْهُ لصهيلٍ كترنيمِ مآذن ؟
لا أصدّق
لا أصدّق يا بلادي .

لا لأنّكِ شِخْتِ :
ففي اغبرارِ الذوائبِ وقارٌ
وللتجاعيدِ فعْلٌ قَصّرَ عنهُ الغُضوض.
ولا لأنّكِ انزويتِ :

لو انّكِ إذْ تنحّتِ الأضواءُ عنكِ
احتضنتِ المعاهدَ
أو افتتحتِ المياتمَ أو جمعتِ التبرّعات.
لا يا بلادي :
وكنتُ اذاً لأهواكِ .
وأغنّي جمالاً يتدرّجُ وما يزول ،
وكنتُ اذاً أزوركِ
وأحْـرِمُ إذْ أزور .

لكنّكِ تكلّلْتِ مع المشيبِ بالهوان
ونفضْتِ عنكِ ذكرى زوجِك والشباب
كأنّهما غبارٌ على جسمِكِ المعفّر ؛
لكنّكِ أخْصَيْتِ بَنيكِ

ورأيتُهم طأطأوا الرأسَ لذكراكِ ؛
وتمرّغتِ مع هذا وذاكِ من منحرفي الميول
(وكيف أصدّقُ ما يقالُ عن ماضيكِ
يا بلادي
أنا الذي رأيتُ بيتَكِ وأضواءَهُ الخافتة؟)
ولمّا أشاحَ عنكِ العاشقون
قَوَّدْتِ لِبناتِكِ
يا بلادي
يا بلادي .

١٠

هذا الشبحُ الذي يُلازِمُني
وعرفْتُه مُذْ عرفتُ الحياة ،
أما مِن وطنٍ يناديه في السُبات
فيهجرني إليه ؟
أما مِن زعيق بوقٍ فيُلبّي الزعيق ؟
أما مِن معبدٍ فيلبس المسوح ؟
أما مِن ارتعاش قَدٍ
فيتلوّى ، في خلوةٍ ، ساعةً في المساء ؟

مزّقتُ جواز السفر
إذْ رأيتُ رسمَه فيه معي ،
بدّلْتُ اسميَ إذ انتحلَه ،
أنكرتُ وطني يومَ انتمى معي لحزبٍ فيه.
هربتُ ، اختفيْتُ ،
التجأتُ لكهفٍ نهاراً
وتسلّلتُ ليلاً للقفار ،
أرخيتُ لحيتي ،
ضربتُ في وجهي الوشم ؛
وفي بلدٍ غريب
تمدّدْتُ مرتاحاً وابتسمت .
وانتصبَ في وجهي وقهقه .
معي حين أراهُ ،
وحين لا أراهُ

كحُرْدَبَّةٍ معي .

الى أين ؟
الى أينَ ، أيُّها الظلُّ
الذي رأيتُهُ حتّى في الظهيرة ؟
الى أينَ ، أيُّها الشبحُ المُلازِمي ،
الذي رأيتُهُ ينتظرني بهدوءٍ
بين طيّاتِ المياه
حين التجأتُ بجنونٍ
الى الصخرةِ المثقوبة ؟

فاوستس ١٩٥٤

أسرعي ، أسرعي يا خيولَ الظلام .

قرعتُ بابَ الجحيم ،
تسلّقتُ تلَّ المُلْـهِمات ،
همستُ للجنِّ في داخلي ،
وسرتُ بعد الغروب في الخلاء ؛
وما اهتزَّ قلم .
ناديتُ : أُقاوِضُها بالنجاحِ
بالجاهِ بالصحّةِ حتّى بالهناء ؛

وما طنطنَ مسمعي .

عرضْتُ نفسي ، فلم يكتظَّ سوقٌ

ولمْ يَشْرِها حتّى مفيستو

(قالَ : « بالوحدةِ ») .

ولمّا يئستُ ،

صرختُ : «رضيت؛ رضيتُ ،مفيستو» .

ستٌّ سنين .

وفتّحْتُ عينيَّ كلَّ صباح

على الصكِّ بدمي

ولَفْلَفَني في العشايا .

وساقني مفيستو إلى الحواضرِ

حيثُ الملايين أركانُ أقفاص ؛

وحملني الى فُلْكٍ يعجّ :
كلّ يقصُّ عنْ كلٍّ أوديسّي
وبحرٌ بينَ كلٍّ وكلّ .
تمنّيتُ البراري
وجزيرةً خليّة .

وأمرْكِ بي
(بطيئاً بطيئاً خُيولَ الظلام) .
وخلتُ التجاعيدَ هجرتْ وجهي
وأبوابَ بلدي فُتِحَتْ لي .
في المنعطف ، وقد تشابكتْ يدانا ،
حين قرّبْتِ وَجْهكِ
رأيتُهُ خلفَكِ

يُوميءُ بالصَّكِّ لي .

وفي المساءِ قهقه : « ماذا نظمتَ ؟ »

ـ إذْ قرّبْتِ وجهَكِ لابنِ عمّي .

ساعةٌ لا تدقّ .

عربةُ نارٍ لا تجيء .

قلمٌ يُفسِدُ على الأرض ولا يُخصِبُ أوراقا.

وصكّ بدمي .

أسرعي ، أسرعي يا خيولَ الظلام .

كريلانس كمثالٍ للبطل

عندما تخطّى البوّابةَ
سمعتْ أذناهُ ولمْ تُصْغِيا ،
خفتتْ فيهما الصرخاتُ المتعالية .
قطعوا حبلَ النجاة ،
رأى القيدَ انْقطع .
« لِيُنْفَ ! »
عندما تخطّى البوّابةَ
سمعَ « ارْحَمْنا ! »
« لِيُنْفَ ! »
خارجَ البوّابةِ الحديديّة

في أرضِ العِدا
إنتصبَ في الفُورَم
إستعرضَ السبايا
وانطلقتْ تخرقُ القهقهات :
« نفْيتُكمْ ، بني وطني ! »

عندما تخطّى البوّابةَ
أو تضاءلَ المرفا
عندما التمعَ لهيبُ سيفٍ
أو بُشِّرَ أبُ
عندما تذرذرتِ الأوراق
أو تقلّبَ جامداً
في شتيتٍ من الديار .

في الطريق الى دمشق

أرى ، ويرثي الكفيفُ لحالي .

تتعكّزُ وتُبَحْلِق . ماذا ترى ؟

هنواتٍ مِن لا شيء ،
وكوناً مليئاً بالفراغ .

هلمّ أزيحُ القشورَ عن عينيكَ ،
وأريكَ مباهجَ الحياة .

أجوبُ الملاهي ضُحىً
وأرتادُ المصايفَ في الشتاء .

أتُبصِر ؟ تكلّمْ ، أجِبْ .
جفناكَ يرُمشانِ ، ولسانُكَ عَيّ .

ثوباً مزركشاً ، أجزاءَ ثوب ،
ينضمُّ ، ولا يستُر ،
ويشَقُّ ـ
إضْ .. غَطْ .. على الطين .

أيضاً ؟
أيضاً : أنا سمعٌ وشمّ ؛

انْ رمتْني الرعشةُ ما دريت :

لهمسٍ بعيدٍ أمْ لطيبٍ زُعاف .

بدّلتُ لكَ الطين ،

تمتّعْ بالجمال .

أينَ أقلعتَ بي ؟

غيرُ هذا الثوبِ كان ،

وغيرُ ذا الهمسِ (أسْ..كِتْ..ها) والطيوب.

تمتّعْ –

بلى ، ولا تقلْ : بالجمال .

« حبيبي ، حلمتَ بي ؟

وقلتَ بحسني الدرر ؟

اقتربْ منّي ، التصِقْ ،

ودَعْها لحصيٍّ وراهبة .

عشْ ، حبيبي ، تمتّعْ ـ »

بالجمال ؟...

« بالجمال . شُقَّ ثوبي ، كيف تراه ؟ »

كشدوكِ ..

« وطيبي . عيناكَ آهِ ، تخرقان ـ »

تجُرُّكَ عصاك ؟

أينَ بعد ؟

حيث تحت الثوب جسد ،

هو يبعثُ الشدوَ ، وعنه الطيوب .

كانَ ، وقذفتَ به .

جسدٌ لانسان ،

يوحي ، ويسكن مقلتيّ

طيفاً لا يجفّ .

الطينُ فيض . أدْنُ منّي .

.. والآنَ ، ألا ترى ؟

أرى .

أرى هالةً ، وراحتينِ من نور .

لكَ الطينُ :

لي راحتاه ـ

ستلمسانِ ، وسأبصر .

الى طرسوس ؟ وتهجر القدس ؟

الى دمشقَ ، ايّاما .

الى مدام افرودايته

لأنّكِ الصقوعةُ
ارتميت
أنشدُ الدفءَ فيكِ .

ذراعُكِ يدعو
يمينُكِ تُراوغُ العين
تداعبُ الجماجم .
لأني أردتُكِ
هرعْتُ للسرير ،

لمْ ألمحِ الجماجم
ترحّبُ رطماً بالقرين .

غنائي يُهَفْهِفُ الرخام
يُقَوْلِبُ الشفتين .
غنائي يُلوّنُ الرخام
يُرقّصُ الجماجم
يُقوّي النداء .

ذراعكِ يدعو ،
سكونُكِ هياج .
عناقُكِ دفءٌ وقشعريرة ،

عناقُكِ حمّى .

يُلمِّعُ لمعانَكِ غنائي
ويُعَرّيني .
صَمْتي قصورٌ ،
غفلةٌ تجَلْبِبُني
وتتدحرجُ على المرمرِ .
كصمتي غنائي انتحار .

على شطّ قبرص
بين يساريكِ
اتّحدَ بالأرضِ الاوليمب .

يومَها الفنّانُ بعلٌ
وذو السيفِ خليل ؛
يومَها الحبُّ والموت في عِدا ،
والحبُّ مُتْئِمٌ ، غيرُ خصيّ .
زبداً بعدُ كنتِ ،
بقايا الهٍ فقيد ؛
لمْ تُحَجِّرْكِ يدان ،
لمْ يُقْصِكِ لوفرٌ ،
لمْ يُخْفِ يُمناكِ زمان .
كنتِ بعدُ حياةً وفيضَ حياة ـ
يومَها لو عرفتُكِ
أكنتُ ارتميت ؟

لأنَّكِ رخامٌ
تحرّقتْ عروقي ،
لأنَّكِ في الأسرِ
لأنَّ اللوفرَ قريب
لأنَّ ردًى بين يُمناكِ والعيان .

١٥

صفاءُ ساعة ، وهياجُ ساعة ،

في مقلتيكِ .

مياهٌ وديعة يسري فوقها سارٍ ،

وأمواجٌ شرسة لا يُروِّضها غيرُ إله .

فمتى أجيءُ البحيرةَ ، أتعرى واستحمّ ،

أداعبُ زرقتَكِ وزرقةٌ في السماء تُظلّلني؟

متى أجيء :

وفي الهياج ساعدايَ ساعدا وليد ،

وفي الصفاء أتبيَّنُ في البحيرةِ

أشلاءَ وأشلاء لمن أغرتْهُ بالاستحمامِ عيناكِ ؟

١٦

كالبرقةِ في منتصف ليلٍ شتويّ
ومَضَتْ ،
كالبرقةِ لمعاناً وخطفا ،
لا رائدةَ غيثٍ ولا بشرى ربيع .
لمعتِ ، ولمعَ الأفق ،
واختفيتِ أبداً ، وكأنْ ما كانَ ما كان.
فظلَّ للَّيْلِ اسوداده وللأفقِ حدُّه
وصمتٌ في الكونِ رهيب
لمْ يُلاشِهِ قصفُ رعدٍ
بلْ زادهُ وزادها حلمٌ مَرَّ وزال .

لمحتُكِ
والقلبُ هادىءٌ والفكرُ وسنان ،
وابتسمتِ .
حرّكتِ هذا وأيقظتِ ذاك ،
واختفيتِ .
ما كانَ أحلاني بعيداً عن الكونِ وعنكِ ،
وما أحلاكِ دوماً ، وما أحلاكِ .

عرفتُكِ وهلْ عرفتُكِ
تباشيرَ صباح ،
واذا أنا غيرُ ما عهدتُني :

أذكرُ أمساً طويتُه
وأبني على حاضرٍ ملوّن
غداً ما وَعاهُ خيال .
عرفتُكِ
فعرّفتِني على ما جهلتُ عنّي
ونبشتِ لي ما أخفيتُ فيَّ ،
وهربتِ .
عرفتُكِ
وأنا إناءٌ من الزهر خلو ،
فكنتِ الزهرَ : لكنْ ما كان أسرعَ ما فني ،
وأنا ديوانٌ ليس فيهِ شعر ،
فكنتِ الشعرَ : لكنْ ما كان أقصر عمرتَه ،
وأنا هيكلٌ غاب عنه القدس ،
فكنتِ القدسَ :

قدساً واشتهيتُكِ .

وغبتِ وغبتِ ،
واستكان القلبُ ، مِن غير هدوءٍ
وارتمى الفكرُ ، مِن غيرِ سنة ،
ولكنْ أحقّاً أتيتِ ؟
وحقّاً كنتِ ؟
وكنتُ ؟

١٧

كطولِ القصيدِ عمرُكِ ،
يا خمرةً حَلَتْ ولمّا تَعتّق .

بالأمس كنتِ سماءً صافية ،
واذا بكِ ، في غفلةٍ رحيم ،
غيرُ ما أنتِ ،
واذا في كلّ بقعةٍ من السماء
نجومٌ ونجوم
وتباشيرُ قمرٍ تلوح .

هذي النجومُ البواكر
منها تحاكُ البراءة ؛
إنْ وشوشتْها ضحىً أخواتٌ عوانس ،
جهلتْ ، خجلاتٍ ، ما يُشاع .

كُلُّكِ اليومَ انطلاق :
قهرتِ كانونَ ، وماقنعْتِ بنيسانَ هذا
(تباركَ ، تباركَ نيسانُ هذا)
وكأنَّكِ تبغين قطفَ حزيرانَ اقتطافا.

أنا ، يا صغيرةُ ، أخشاكِ

. وأخشى غداً

شَدْوُكِ فيه حرامٌ على أذنيّ الهرمتين،

ولَمعانُ نجومكِ يصعقُ في عينيّ نوراً خبا.

كطولِ القصيد عمرُكِ ،

وكطولِ اذٍّ كارِه اذٌّ كارُكِ .

وحدي اجتنيتُ مِن الشوكِ تيناً ،
وخمراً مِن الحَسَكِ اعْتصرت .

بِصارمٍ تُندِّيه السمومُ طعنْتِني ،
فتقاطرتْ هنَواتٌ مِن النزرِ دمي :
هل تذكرينَ البلبلَ الدامي
ومولدَ الحمرِ الورود ؟

سلوْتِني ، وأحببتُكِ :
نافلةٌ لي تُحْسَبُ ؛
أيُّ أجرٍ كان لي
لو عُشِقْتُ وعَشِقْت ؟

حرمْتِني حبَّكِ واللقيا الهنيء ؛
هلْ حرمْتِني حبّاً ولقيا
في غيبوبة وفي رؤيا
وفي نفثات شِعرٍ كأنفاس إله ؟

عرفتُ الحبَّ ، وما عرْفتِهِ ،
وثالوثَهُ القُدُس :

وفاءٌ وحرمانٌ وإيحاء ،
إنْ لمْ يكنْها فما يكون ؟

أَذقتِني الحرمانَ المريرَ ،وأوحيتِ لي،
وتسألينَ عن دليلٍ للوفاء :
هيّا اقطُفي التينَ الذي اجتنيتُ
وبالخمر التي اعتصرتُ اثملي ،

لا تُبقِي لي غيرَ الشقا ،
واسْعَدِي ، فأسعدُ .

١٩

قطّبي جبينَكِ ، ولا تبسمي :
فَلأنْ يُزهقَ الزهرةَ محراثٌ يجتثّ
خيرٌ مِن أنْ تُزهقَها أنامل قطّافة .

أبسمةٌ هذه ؟
كانت بسماتُكِ بعثَ هناءٍ ،
حتّى ابتسمْتِ بالأمس ؛
فاذا الشمسُ ، وهّابةُ الدفء ، تضحي فاتكة
واذا الغرسُ يرتمي صريعاً تحت وهجها

وكانتْ عرقَ حياته .

حتّى ابتسمْتِ بالأمسِ
لَهُ .

٢٠

أيُّ جانٍ فيكِ
(وفي البدر كلف) ؟
هيكلٌ من ضبابٍ ، بلا كساء ؛
وعينان من غير نور :
عينا زجاجٍ هما ،
أم يتيمةٌ كعَيْنِ الصَقْلَبِ ؟

كاملُ الحاسّاتِ ، ولا يحسّ ؛
سواءٌ في سمعِهِ أغرودةٌ وبحّة ،

وفي التيهِ لحدُ الصلاةِ والشتيمة .
حرامٌ على فيهِ أنْ ينبس
وعلى شفتيه أنْ تأنسا ببسمةٍ
أو جبينِه أنْ يُقَطِّب .
عواتِيُّ الرياح لا تهزُّهُ ،
وعبثُ النسيم لا يستثيرُه :
ليس للجنّ شقّ .
لا يمسُّ ولا يشمّ ،
وإنْ يذقْ فأكلُهُ قَيْ .

محمومٌ ، أبداً في فتور ؛
إن تأرجحَ فالى حمّى ، تنفثُ الوبأ
ولا يموت ،

أو الى برداءَ ، تشلُّ
ويبقى في نشاط .
في نشاط ؟ وروعُهُ في هدوئِهِ
وصخبُه في سكونِهِ ، وبطشُه في يد لا تسدّدُ سهماً
وفي جفنين مطبقين منهُما شررٌ يتطاير .

آويتِه أمداً ،
أخبثَ ضيف على أحلى مضيف :
أفتركينَهُ يُضحي ربَّ منزل ؟
انّ الكلف في البدر سريعُ الزوال ،
والاّ فالمحاقُ عمّا قريبٍ وريث ؛
وبحّةُ البلبل بنتُ ساعة ،
فانْ عمّرَتْ غَدا والغرابَ صنوين .

أفما آنَ بعدُ أنْ تهجريه ؟

عبثٌ قتالُهُ ،
حتّى السيفُ ، في ضربِهِ ، أبتر ؛
بمأمنٍ لذا يعيش .
واحدٌ السهمُ الذي يُرديه :
صنوٌ له مِن الصدودِ أوْ ويه .
ذا حتفُهُ ، كعبُ آخيل
لهُ ولي :
أأفقأ عينيَّ كي لا أشهدَ قبيحا ؟
أأعايشُ مثلَه لأبْعِدَ عنّي ذكراه ؟
وإنْ فعلتُ وظفرتُ
أيُعْرَفُ مَن الغالبُ والمغلوبُ مَن ؟

ألا أكونُ أينما ريّشتُ أصابني سهمي؟

فزع

طفلانِ ، أنتِ وأنا :
نبكي ، نطلبُ دميةً ،
فانْ تجيءْ مزركشةً لنا ،
رميناها ولمْ نلعبْ ،
وعمَّ الصراخُ الدُّنى .
طفلان
طفلانِ ، أنتِ وأنا .

عرفتِ ما تبغينَ ، وعرفت ،

فهويْتِ في المسعى ، وهويْتُ .
وحدقْتِ في عينيَّ ، وحدَّقتُ ،
فأسبلْتِهما ، وأسبلْتُ .
مَيْتَةٌ ومَيْتُ .

عطشنا ، فرُحْنا إلى النبع فوق الجبالِ ،
ولم نخشَ أسْداً وسطَ أدغالِ .
. . . وفي النبعِ لمحْنا خيالَكِ وخيالي ؛
فاستدرْنا ، وماتتْ على شفاهي «تعالي» .

على السفحِ قبضْتِ على يدٍ من حديدٍ ،
وأشحْتُما عنْ تائهٍ وحيدِ .

يلمسُ الصدرَ ، فيُلْفيه مِن جليدِ ،
وألمس صدري ، فألْفيه مِن جليدِ ؛

ولمْ أرِدْ ، ولمْ تُريدي .

إلى أنِ انزاحَ الستارُ الأخير
كان في حبّنا نقصٌ
خفيٌّ أليم .

كتاباً كنتُ لكِ ، وكنتِ لي كتابا ،
وعلى الرفِّ ألفُ سفر ؛
وأختاً كنتِ لي ،وكنتُ لكِ أخا ،
وكلُّ مَن في الكونِ اخوانُ .
فانْ غبتِ وانْ غبتُ

انتفضَ الحبُّ ولمْ يعتكفْ.
ولمْ ندرِ (ألمْ ندرِ؟)
أنْ كان في حبّنا نقصٌ
خفيٌّ أليم.

ظَنَنّا حبَّنا الكمال
(ظَنَنّا أمْ تعامَيْنا؟)
فقعدْنا عنده، سقامى،
ولمْ نلتفتْ الى حوضٍ قريب
تمّحي الأسقامُ فيه
ويبلغُ الحبُّ بعدَه الكمال،
حتّى تراءى لنا الستارُ المقيت.
بِلا أرجلٍ سعيْنا،

بطيئاً بطيئاً زَحفْنا؛

هل خشينا المياه ؟

مِن مياه البعث ارتعبْنا .

(رائدَيْنِ كنّا، أم كنّا نزورُ أوطانا ؟)

وفي الحوضِ ارتميْنا ،

لِارتميْنا حتى ارتويْنا

عندما انزاحَ الستارُ الأخير .

٢٣

خدعْـتِـني ، فلمْ أُبالِ :
لأنّـكِ انتقيتِ
يومَ بحثتِ عن حبيبٍ
صديقي .
أحببْـتِـهِ ، وقبلَـكِ أحببْـتُـهُ ،
فتلاقى حبّي وحبُّـكِ ؛
ويكفيني .

كان يكفيني

لو انّكِ لمْ تهدفي
أن تخنُقي صداقتي لهُ
بحبّكِ .
أن تخنُقي الصداقةَ
وتصرَعي الحبّ :
أنْ تذبَحي الفتى
على مرأى أبيه ،
و بعدَها تذبَحيه .

لمْ أبالِ :
لأنَّ حبّكِ كانَ سيخبو
اليومَ أو غدا ،
فخبا اليومَ

واسترحتَ .

طعنْتِني ، فلمْ أقضِ ،
والتفتُّ ، فاذا أنتِ التي تُلْحَدين .
وعلى رمسكِ خططتُ :
« فلتمتْ حبيبتي ، وليعشْ صديقي » .

كذا يمّحي الشوقُ في أوْجهِ ،
وتنهارُ في ملئها آباد ؟
كذا تخمدُ الجذوةُ حمراءَ ،
ويُعْتَصرُ الهناءُ في لذعةٍ وحيد ؟

سعيرٌ فيَّ كان يتأجّج ،
وأمواهٌ تعجُّ ، وبركانٌ يثور ـ
ما كان فيكِ :
فأخمدتِ اللهيبَ ، وما اختمدتِ ،

وتقبّلْتِ الحمم ،وشيءٌ فيكِ لمْ يندثرْ،
واحتضنْتِ السيول ،
وكأنّكِ نديمٌ يَعُبُّ مِن كفِّ ساقي ؟

وهبتُكِ أغلى كنوزي ،
فاحتقرْتِها بصمتِ موجعِ ؛
ولمحتُها شاحبةً عليكِ ،
فاحتقرتُها أنا ، واحتقرتُني .
كَبُرْتِ ، وذللتُ ،
وتضاحكتْ في الجدارِ المرايا .

جئتُكِ أحجُّ ، فأعدتِني

شوقي نفورٌ وإيماني هباء
(في المعبدِ القدسُ أمْ في العابدِ ؟)
وفي الباب التقيت ـ
أهُو القلقُ الذي خلّفت ؟
وعدتُ عليه أتكي
وعلى رفيقي الجديدِ ، الندَم .

كذا يكونُ الرحيل :
مطهرَ أمانيٍّ وارتياب
فرعْشةَ نعيمٍ
تمّحي في جحيمٍ سرمدي ؟

عاقر بين اطفال اخشها

غيومٌ من الصغارِ تكتنفُني ،
وضبابٌ من الجدبِ لي وشاح :
أنْ أثملَ ولا أعصر عنقودا ،
وأنْ أساكِنَ النسور ولا أبتني كوخاً لهائم .

كالعاقرِ بين النساء أنا :
معَ الشحوب في وجهها سقمٌ وهمّ ،
وفي الخاطر وشوشات :
أكان لزاماً أن أتزوّجَ

فأعرضَ للناسِ قصوري
وأجعلَ منّي لأترابيَ أضحوكة ؟
ليتني ظللتُ عزباءَ ،
فالعانسُ لمْ تعرفْ خَيبةَ العقيم .

وتُمنّي النفسَ (واهاً للأمل :
أخدّاعٌ هو أمْ وليٌّ أمين ؟) :
« كرملِ البحرِ ذرّيّةُ سارايَ
العاقرِ حتّى الشيخوخة . »
وبسمةٌ ، وغصّةٌ ، وَ :
« أحمد الله ، لستُ شجرةً تُثْمِرُ علقما
ولا تينةً ذوتْ من لعنةٍ حتّى الورق .
إنْ لمْ أكنْ أمّاً تلد

فلَسْتُ بجلاّد يَحْرمُ الأمّ وليداً خُلِق . »

عاقرٌ ، ما هَمّ ؟
أما تحنو على الصغار بحبّ ؟
أيُّ أمٍّ أحبّتْ أطفالَها
حبّ يسوع يلفظُ البركة ؟

وعاقرٌ بعدُ ، مَن قال ؟
إنّما هي مِن الحورِ الحسان
حلمِ المؤمنِ ؛
فانْ لم تَلدْ ، فلا لعقمٍ
بل منحةً من الأرباب :

أن تنعمَ باللذّةِ
الخصبةِ خصبَ المُتْـئِمات
ليلةً بعدَ ليلةٍ بعدَ ليلة ،
حتّى اذا أقبل الفجرُ
ترامتْ بين ذراعيه بكرا ،
تعرفُ مِن سرائر الخلق ما لا تعرفُ الأُمّهات .

« رحماكَ ، زعيمي ! »

وقبّلْتُ أسفلَ القضبان .

ورماني بضحكةٍ وقال :

« غنَّ ، أُكسّرِ القضبان . »

وتَنَحْنَحْتُ ، أستجرُّ النديبَ

أستجرُّ الرجاء ؛

وغنّيتُ وغنّيتُ ،

وتراقَصَ الصوتُ

ولمْ توقّعْ له حنجرة ،

وغنّيتُ وطيّبتُ لي .

وانتهى إليَّ صوتٌ بعيد :

« كفى ! »

قلتُ : « ابتعدْ أيُّها الشيطان » ؛

وألحَّ : « جئتُ بالمطرقة » ،

قلتُ : « بلى ، ولكنْ

لستُ أرى القضبان » .

القصيدة

ما الذي يُضيءُ لي الزقاقَ الأسمرَ
ويوجّهُ خطايَ متسارعةً
الى حيث يُسْفِكُ الخصبُ فيضاً
وتبقى البراري براري ؟
يقيناً ، أيّتُها الحلوةُ لأني احتجْتُكِ ،
ما قادني اليكِ هوًى لكِ
بل قادني اليكِ هوايَ لي
ولقوّةٍ فيَّ ثريّة
باتَ يُقْلِقُني في العشيّ
أنْ أراها أفلتَتْ في الصباح ،

فأسعى إليكِ ـ

لتبعثي ، جاهلةً ، فيّ اليقين ،

ونتلو (ولا تُتْلَى لنا) الطقوس ـ

لا لتُعْطي بل لتأخذي

ولا لتأخذي بل لأهَب ـ

وأضحكُ من الحياة وزينتِها .

وأقول : « عفوكَ ، أيُّها الرسول ،

تحرَّقْتُ ولمْ أستشْفِ في مصحِّك »،

وأقول له: « كيف شوكتُكَ ، يا رسول؟ »

٢٨

ليلةَ ارتديتُ بدلةَ المواسمِ ،
وتزيَّنْتُ وقصصْتُ شَعري ،
وتعشَّيْتُ في الكوبا كابانا
مع رفيقتي ، وأصحابي ورفيقاتِهم ،
ثمَّ تمشَّينا على الكورنيش المُعْتِمِ ،
وقلنا للبحر ازبدْ وطَرْطِشْ ،
وللنجومِ هَهْ هَهْ ،
وانشغلتْ عن القَوْلِ الشفاه ،
أخذتُ القلم لأكتبَ في حبيبتي سونيتة ،
وحَسْمَسْتُ ألتقطُ القوافي ،

ففرّ القلمُ بينَ أصابعي ،
وعلى الأرضِ حيثُ ارتمى
شخطَ في وجهي ، وقال :
« تُغَنِّي ، وأنتَ شعرةٌ
وعلى الرأسِ جمّة ؟ »

ويومَ رفعتُ للمديرِ استقالتي
(لا أرفضُ لهُ طلبا) ،
ولفحتْني الشمسُ
ثم احتجبتْ عند الظهيرة ،
وعربدْتُ ، وركلني البارمانُ الأعور ،
وعدتُ أقبضُ في جيبي على قروشي الهزيلة
لئلا تتسلّلَ من الرتقِ الوسيع ،

انتشلتُ ورقةً لأنفُثَ عليها السباب
أوزّعُهُ على جميعِ البحور ،
فتطايرتِ الورقةُ قبلَ أنْ تصطليبشِعري،
وقالتْ بلهجةِ مُبشّرةٍ مُسِنّة :
« تُغَنّي ، وأنتَ شعرةٌ بيضاء
على رأسِ يافع ؟ »

وأغمدْتُ القلم ،
ولَفْلَفْتُ في الورقةِ زادي .
وبُسْتُ حبيبتيبدونِ سونيتة ،
وشتمتُ البارمانَ والمديرَ من غير نار .
وتلوّيْتُ ، شعرةً وحيدة ،
ورحتُ افتّشُ عنْ رأسِ أصلع

أحُطْ عليه .

أحِبُّ البحرْ
ملعبَ حِنٍّ و بِنّ ،
أحِبُّ الرملْ
زوجةَ شمسٍ بتولْ ؛
وأكرهُ السفينْ
تحملُ خصباً ونورْ
وتحملُ مِقصلاتٍ
للعنقِ والبكارة ،
مجدافُها والخببْ
بعوضةٌ حُبلى تَضُمّ .

أحِبُّ الجدولْ
لاكْسَ خَطَرْ ،
أناجيكِ مِن ضفٍّ
ومِن ضفٍّ تُناجينْ ،
والحنينْ
حرفُ عطفٍ
ترجيعُهُ ناسِخ :

(وانْ قرأتَ القصائدَ
فهلْ صاهَرَكَ الشاعرُ ؟)

٣٠

أنا ربّ قديم
تقصدُ موحاهُ الأمم ؛
فتحتُ الكوّةَ أتلصّص ،
فألفيتني مقعداً أجشّ .
وكَبَوتُ .

خدعةٌ لفّقتُها ، فصدّقتِها ،
وآمنتُ بها اذ وثقتِ .
وانزاح الغمام

عن عيونٍ أربعِ .

تعرّيْتُ على مرآكِ ،
فتزاحمتْ سياطُ الغيظِ والهوان .
والرثاء ؟ رحماكِ لا :
أنا أقمْتُ التمثالَ
وأنا عليهِ أهويْت ؛
فلئنِ اليومَ هدمتُ
فقِدْماً نحتُّ ما خلْتِهِ كالمعجزات .

الى جون مارشل

قلتَ لي : « هيّا معي » .

(خيالاً كنتَ أمْ كنتَ انسانا ؟)

قلتُ : « الآنَ ، وقد عَمَرَتِ المائدة

بأطايبِ الملك وخمرِ مشروبه ؟ »

قلتَ : « هيّا معي » .

وعرفتُ انّ في القصر الذي جئتَ منهُ موائد

حولَ كلٍّ منها فتيانٌ سمانى ؛

فلحقْتُكَ ، أسِرٌّ في داخلي :

« هناك

هناكَ الأطايبُ والخمور . »

وفي القصرِ استدرْتَ وقلتَ : « جُلْ
بين كلِّ الموائدِ
واقتتْ بما تشاء . »
.. ولمْ يكنْ على الموائد غيرُ قطانيّ وماء.

قُبَيْلَ الصباح أيقظتْني بسماتُ
مَن لأجلها كنتَ عكّازي
ولأجلها كان ترحالي ،
والتفتُّ الى الحائطِ ،حيثُ كانتْ لوحةٌ
لغديرٍ وتلٍّ وشجرتينِ وعاشقَينِ وبضعِ عصافير
رسمها طرّاشٌ في نصف نهار
(قيل لي انَّهُ يرسم عشراً مثلَها كلَّ شهر) ،
فاذا لفيفٌ من مرايا

ورفّ من الكتب ونافذة
تُطِلُّ على ما حاول الطراشُ انْ ينسخ.
وقَصْقَصَتْ شعري
وكَوَتْ ثيابي ،
وعندما برزْتُ للناس
غمزتْني فمددْتُ لهم لساني .

ووجدْتُ المسطرةَ التي صحبْتُها معي
قد انكسرتْ ،
وأوراقي القدامى التي أثقلتْ جيبي
زُمَّتْ أبياتُها السبعونَ الى ثلاثين
وقالت الثلاثون : « مُسَّ شعرةً انِ اسْطَعْت . »
وراقصتْ مرصّعاتُ الزّمخشري

حفاةَ ضيعةٍ في الجليل .

ونظرتُ الى الغلاف الذي كانتْ أوراقُ حبّيَ فيه ،

فاذا برسمِ القلبِ الذي كانَ عليه

قدْ أُضيفَ له رسمُ رأسٍ

وثالثٍ دونَهما .

وحملْتُها الى الناقدِ ،

فألقاها على الفراش

وقال لها : « تحدّثي » ؛

وخلعَ نظّارتيه ، وجلسَ يستمع .

بعدَ عشرةِ أيّامٍ لقيتُكَ

وصرْختُ :« أنظرْ ،زالَ مني الهزال».

وقلتَ : « أمامكَ بعد

حُبُّ الأُسود » .

ثمّ